الأمم المتحدة

المجلس الاقتصادي والاجتماعي

التوزيع: عام
E/ESCWA/HS/1992/WG.1/16
١٦ ايلول/سبتمبر ١٩٩٢
ARABIC
الأصل: بالعربية

اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي اسيا

ندوة عن الاسكان منخفض الكلفة في المنطقة العربية
٢٤-٢٨ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٩٢
صنعاء

UN ECONOMIC AND SOCIAL COMMISSION
FOR WESTERN ASIA
OCT 0 8 1992

في العمارة والطابع

إعداد

رئيف مهنا
رئيس قسم نظريات وتاريخ العمارة
كلية الهندسة المعمارية
دمشق

الآراء الواردة في هذه الورقة هي آراء المؤلف ولا تمثل بالضرورة آراء اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا.

92-0622

الطابـــع والمجتمـــع

لقد نوهنا في مناسبة سابقة الى دور العلاقة الاجتماعية في توجيه التشكيل المعماري، وبالتالي في اعطائه شكله المتميز الذي ينسجم مع كل مجتمع من المجتمعات ويعبر عنه ويعطيه شخصيته، فللعلاقـــة الاجتماعية دور فعال في التشكيل المعماري وبالتالي العمراني، في حياة الانسان. والدور هنا دور تبادلـي، مؤثر ومتأثر، فمن العلاقة الاجتماعية ينطلق التشكيل، وبالتشكيل تتأثر العلاقة الاجتماعية.

ان هذه الآلية في التأثير والتأثر تبدأ مع أول حوار اجتماعي يعيشه الانسان مع محيطه ولا ينتهي، فالزمن هنا عامل اغناء واغتناء، وتطور العلاقة مع تطور تشكيل الحيز المهني، خبرة وتراكم خبرة على كـل المستويات التي تمس شكل الحيز المهني بدءا من الاكثر بساطة ومرورا بأعقد اشكاله في أي نسيج عمراني مجدة بالمادة التي تأخذ هي بدورها بعدا أو ربما ابعادا اجتماعية يحكمها في البداية الاحتياج المباشـــر وتوفر المادة وامكانياتها وتنتهي بان تصبح رمزا لظاهرة اجتماعية معينة في فترة زمنية معينة.

ان هناك خطوطا عريضة في تشابه العلاقة الاجتماعية في مناطق مختلفة في مجتمعنا، هي التي تعطي الصورة المشتركة لعمارتنا المحلية، فالتعامل مع الخصوصية يعتبر قاسما مشتركا في عمارة البيوت فـــي منطقتنا ولكن ترجمة هذا التعامل تختلف من منطقة الى اخرى ولكن دون أن تفقد جوهرها ودون أن تفقـد كونها، الموجه الخفي البعيد، الذي يربط ويوجه عمارة البيوت، تبقى لكل منطقة خاصة مفرداتها الخاصـــة التي تتعامل معها دون المساس بالاطار العام.

باستقراء بعض الظواهر المعمارية نجدها تعبر عن مجمل علاقات اجتماعية متوازنة داخليا وخارجيا.

ان التوزيع الداخلي للمنزل المحلي التقليدي انما هو في الحقيقة تجسيد لاسلوب من الممارســـة الحياتية في نظرتها الداخلية وفي امتدادها الخارجي.

واذ انتقلنا الى المفردات والتفاصيل لوجدنا ايضا انها قد وظفت في الاطار الاجتماعي وان كانـــت في بداياتها ردودا على متطلبات غير اجتماعية، فالفناء الداخلي كان عنصرا يرد على التحديات المناخيـــة وقد وظف فيما بعد اجتماعيا عندما ثبت لمستعمله ومن خلال ممارسة حياتية طويلة انه كفؤ لأن يلبـــي الخصوصية بنجاح كبير - وبالتالي يجيب عن المتطلبات الاجتماعية بنجاح كبير ايضا، هنا ننتقل الى درجـة اكثر دقة في الموضوع، ألا وهي كيف استطاعت منطقة أن تتعامل بنجاح مع هذا العنصر اكثر من منطقـــة اخرى وبمهارة أكبر، هذا في الواقع هو الامر الذي يقودنا الى العطاء المتميز في هذا المجال فكثير مـــن شعوب الارض التي تتفق في مناخها مع مناخنا تعاملت مع الفناء بحيادية ولكن ظروف حياتنا المختلفـــة دعتنا لان نبدع من هذا العنصر محورا مركزيا تتمحور حوله كل الفراغات الحياتية للانسان فبعد أن كـــان الفناء عنصرا استعماليا يدخل الهواء والنور اصبح جزءا لا يتجزأ في حركة حياتية دائمة لا حدود بينهـــا، رائدها تكامل الحياة اليومية لهذا الانسان فلم يعد الفناء عنصرا مساعدا بل اصبح «فراغا» لا ينفصل عـــن الفراغات الحياتية الاخرى، يختل توازنها تماما باختفائه، وفي الحقيقة فان هذه الحقيقة الاخيرة هي معيـــار الحكم بين ايدينا على نجاح شعب من الشعوب في التعامل مع عنصر ما وبمقدار تأثير تشكيله المعمـــاري بزوال هذا العنصر أو بوجوده.

اذا عدنا الى مفردة اخرى كانت في بداياتها مناخية وانتهت اجتماعيا فبعد أن كان التنكر للخارج القاسي أو اعتماد الواجهات المغلقة مطلبا أمنيا من جهة ومناخيا من جهة اخرى وظف اجتماعيا من جهة اخرى باعتماد طريقة خاصة لاختراقه من أجل الدخول الى الحيز الداخلي للبناء باعتماد ما عرف بالدهليز، أو باعتماد فتحة معينة تحدد امكنتها وحجومها المتطلبات الاجتماعية المشربية معطى مناخي واستعمالي في البداية وظف اجتماعيا ليصبح العنصر الاكثر طغيانا بين مفردات الطابع في عمارتنا المحلية عنصر يسمح بأن ترى وألا تُرى وهو مطلب اساسي في الخصوصية.

شكل الفتحات وارتفاعها وعلاقتها مع المحيط الخارجي فيما تسمح أو تتطلب العلاقة الاجتماعية ذلك، أمر وظف اجتماعيا ايضا بعد أن كان مطلبا مناخيا ومناخيا فقط، كما في المضافات في بعض مناطق بلدنا.

الطابع والمناخ

ان علاقة البناء مع الشمس وهي أساس موضوع التوجيه في الابنية تلعب دورا هاما في تحديد مفردات الطابع المتعلقة بهذا الموضوع فطريقة التوجيه وموضع الفتحات وحجم هذه الفتحات أمور تحددها وظيفة البناء ومدى احتياجه لأشعة الشمس في كل فراغ من فراغاته.

ولربما كان معظم العناصر التي ميزت المباني في مختلف العصور في مسيرة بحثها عن الشمس هي العناصر التي جعلت الاجابة مشتركة في الرد على هذا الاحتياج فتأمين المناخ المناسب كان الهدف الاول وتفاعل العنصر ليرد على احتياجات اخرى كانت نتيجة منطقية لوجود هذا العنصر.

فمهما قيل عن الفناء الداخلي فهو في اصله تنكر الانسان لقوة المناخ الخارجية ومحاولته لاقتطاع رقعة داخلية في منزله من المحيط العام، القاسي، يستطيع التحكم بها وتعديل قسوتها وتوظيفها لخلق مناخه الملائم لحياة مريحة ودليلنا على ذلك أن مثل هذا العنصر ظهر في بقاع مختلفة من الارض لا يربطها الا رابط تماثل المناخ وتماثل شروطه وفي هذا العنصر ايضا جاء التعامل مع الشمس من حيث التوجه اليها أو التنكر لها هو المحرك الذى أعطى الابنية طبقاتها المتميزة في تعاملها مع هذا العنصر. ولقد سبق وألقينا الاضواء في ندوة سابقة على ما أسميناه ظاهرة الايوان المعبر. هذه الظاهرة التي كانت تميز عمارة ريف دمشق وعلى وجه الخصوص شرق دمشق (الضمير ومجاوراتها) فهذه الظاهرة متميزة في تعاملها مع المناخ عامة ومع الشمس خاصة.

فتوجيه الايوان المعبر نحو الجنوب بشكل اساسي وله من العمق وارتفاع لا يسمح بدخول شمس الشتاء المحببة اليه وما يمنع شمس الصيف غير المرغوبة من الدخول ويقابل فتحة الايوان الكبيرة المتجهة الى الجنوب فتحة المدخل الرئيس للمنزل وربما جاورها يمنة ويسرة نافذتان باتجاه الشمال، ويؤمن هذا الوضع تهوية اختراقية ممتازة تستعمل حين الحاجة لها وتمنع حين عدم الحاجة.

والايوان، اضافة الى أنه موزع بكونه لمختلف الفراغات، هو ايضا بمثابة فراغ المعيشة عندما تكون ظروف المناخ مناسبة.

وإذا عدنا الى البيت الدمشقي في تعامله مع الشمس والمناخ ايضا وجدنا أن البيوت الميسورة تتعامل في توزيع فراغاتها تبعا لصفات الشمس فهناك الجناح الصيفي الذي ينفتح الى الشمال (عكس الشمس) وهناك الجناح الشتوي الذي ينفتح الى الجنوب (جهة الشمس) وهناك الايوان الذي يتجه دوما نحو الشمال (الا بعض الاستثناءات النادرة) وذلك لكونه عنصرا صيفيا يتكامل مع الفناء الداخلي، أما في البيوت العادية فالتعامل مع الشمس يكون بأفضلية احتياج الفراغ اليها وليس بتكرار الفراغ حسب حالة الشمس مع الفصول فتتقاسم غرف المعيشة والنوم جهات الشمس المحببة وتتركه الجهات الاخرى لفراغات أقل احتياجا للشمس سواء لأنها ليست في حالة احتياج ملزم للشمس أو لأن استعمالها يتم في فصول تعتبر الشمس فيها غير محببة، وهنا نذكر الايوان التقليدي مرة اخرى.

ننتقل الى ظاهرة أخرى في المناخ هي التهوية ومحركها الرياح، وأهمية الرياح السائرة في منطقة من المناطق، فقد تعامل أهل منطقتنا مع هذه الظاهرة بنجاح كبير فجاءت التهوية الاختراقية في الايوان المعبر وجاء الملقف، وكلها مفردات في الطابع المعماري لم يسبقنا اليها أحد وهي تشير الى الذكاء في التعامل مع معطيات الطبيعة والى فهم عميق لصفات هذه المعطيات ولاحتياجات الانسان منها والى الموازنة في اطار هذا الفهم بين الصفات والاحتياجات ولن ننسى في هذا المجال الحديث عن الاسقف المضاعفة بمعنى استخدام صفات الهواء العازلة للمحافظة على مناخ داخلي محبب كما لا ننسى ايضا حدائق السطح والحدائق المعلقة كونها مفردات في الطابع ترجع جذورها الى الاحتياج وحسن الرد عليه تجاه التحديات الطبيعية المفروضة.

وربما انتقلنا في هذا المجال الى شكل الفتحات وحجمها وتوزعها وسماكة جدرانها بما ينسجم مع معطيات المناخ من شمس وتهوية وسواهما.

فالفتحات الضيقة سمة والانارة بفرق المنسوب سمة، كلاهما سمة مميزة وناجحة ومفردة من مفردات الطابع.

المشربية مفردة من مفردات الطابع اجابت على عدة احتياجات أولها رد الشمس، ثانيها تأمين التهوية واستغلالها لاحتياجات منزلية ثم ثالثها وهذا ما سنتحدث عنها لاحقا الاستعمال الاجتماعي مما جعل منها عنصرا اجتماعيا بالتفضيل بينما لم يكن الاصل في وجودها كذلك.

ولو انتقلنا من العناصر المعمارية الى العناصر العمرانية ونظرنا الى النسيج، لوجدنا انه تأثر ايضا بموضوع الشمس والمناخ وعندما كانت الضرورة تقضي بعدم التوجه الى الشمس على محتوى النسيج جاء الفناء الداخلي ليعطي حلا مرنا يجيد فيه المقيدات النسيجية بشكل عام، لقد كان أنجح الحارات في النسيج القديم على مستوى الحارة كونها فراغا يضم نشاطات اجتماعية، تلك التي اتجه محورها جهة الجنوب.

وفي العمارة المحلية الحديثة لن ننسى الشرفة وهي معطى مناخي، ومناقشة مفهوم الشرفة بحد ذاته أمر هام لأنها مفردة من مفردات الطابع، ولن ننسى كاسرات الشمس التي اصبحت سلاحا ذا حدين في هذا المجال ولا مجال هنا للاسهاب في الامثلة للتأكيد على تأثير المناخ على مفردات الطابع من شمس وتهوية وظروف عامة للتهوية التي تميز كل منطقة وينتج عنها بالنهاية مفردات تعطي الطابع ان أحسن فهمها واستغلالها وتوظيفها.

الطابع والمادة

المادة هي وسيلة التجسيد المعماري وهي الوسيلة الهامة والاساسية ليتخذ عبرها الفراغ المعماري شكله النهائي، هذا الشكل الذي يميز ذلك التجسيد وبالتالي ذلك التشكيل المعماري ومن هنا تظهر أول المواجهات بين الاحتياج الفراغي للنشاط الانشائي وبين الامكانات التي تسمح بها تلك المادة في عملية التجسيد وبالتالي التشكيل من خلال صفاتها فلكل نشاط متطلباته التي تترجم الى احتياج فراغي سواء اكان على المستوى المسطح أو على المستوى الحجمي وكل نشاط يطمح لأن يستغل الفضاء المحيط بدون قيود يحقق احتياجاته دون عوائق ولكن تحقيق ذلك يبدو مستحيلا باختزال موجهات الفراغ واجزائه المتتابعة والمتجاورة التي تتطلب طبيعة النشاط والتي هي بالنهاية الاسطح والجدران اختزالها الى الصفر، الصفر في السُّمك والصفر في الكثافة لتصبح كل النشاطات في الفضاء حرة مطلقة وليستوعب الفراغ كل شيء، الأمر الذي يستحيل تطبيقه من الناحية العملية حيث يشترط كل نشاط أمورا أخرى غير تحديد حدوده وميزات القيام به فهناك شروط من الخصوصية تفرضها طبيعة النشاط، شروط من الخصوصية البصرية، وشروط من الخصوصية السمعية، اضافة الى الشروط البيولوجية المناخية، كل هذه الأمور لا يمكن أن تتحقق الا عبر استخدام المادة الكفوءة لكل اشتراط من اشتراطات النشاط وبالتالي الفراغ الذي يحتويه وصولا الى التجسيد المنشود، ويدخل هنا عامل جديد هو عامل الديمومة وينبثق عنه أو يكمله عامل الثبات لمقاومة العوامل الجوية والطبيعية، وتدخل هنا صفات جديدة من المادة لتقاوم أو لترد على هذا المطلب أو ذلك التحدي، ومن هنا يأتي دور الانسان في المهارة والحذق لاختيار المادة الكفوءة في المكان المناسب.

ان حدود هذه الكفاءة في المادة والتي تؤمنها مواصفاتها الطبيعية وخواصها الذاتية قد تصبح عبئا وقيدا اثناء استخدامها لتوفية متطلبات واحتياج الفراغ من الحيز الفراغي المجسد الدائم الثابت فمن المواد ما هو متين ومنها ما هو ضعيف ومنها ما هو عازل ومنها ما هو عازل بحدود ومنها ما هو غير عازل اطلاقا ومنها ما يجمع صفات متناقضة تسمح باستعماله في هذا المجال ولا تسمح بتوسيع هذا الاستعمال مما يستدعي استخدام مواد رديئة أو مكملة.

وهنا نعود لنقول أن افضل المواد ما استطاع أن يستجيب لاكبر عدد أو قدر من الخصائص تفي بأكبر قدر من المتطلبات . ولكن هل هناك مادة مثالية تستطيع الاستجابة لكل هذه التحديات دفعة واحدة؟ والجواب كلا بالطبع ومن هنا بدأت فكرة التعامل مع المادة من خلال فهم اكبر لها لتحسين امكاناتها ومحاولة مد مجال الاستفادة منها لتغطية اكبر مجال من المتطلبات التي تفرضها شروط نشاط محدد بكل معطياتها ومتحولاتها.

خاصة اذا كان تعذر ايجاد مواد مساعدة لتغطي تقصير مادة معينة بسبب خواصها للرد على احتياج معين أو مقاومة تحد معين، هنا تصبح الحاجة أكبر لفهم المادة بعمق أكبر ولتحويلها الى مساعد بدل من الرضوخ لتصورها فتكون عائقا وكثيرة هي المواد التي بدا أولا انها محدودة الامكانات وبدا بالتوازي أن استخدامها سيبقى قيدا في عملية التشكيل المعماري لتحقيق الفراغ المناسب لنشاط أو لانشطة معينة. ويدخل هنا مفهوم تطوير امكانات المادة من خلال توظيف أفضل لمواصفاتها ومزاياها.

الانشاء هو الاطار الذي يتعامل مع المادة في عملية التشكيل المعماري والجملة الانشائية هي الاطار العلمي الذي يوظف المادة في أحسن تصرف من خلال أفضل امكاناتها المعروفة وتطوير الجملة الانشائية وبالتالي تطوير توظيف المادة هو الابداع المنشود في استنباط كل ايجابيات المادة وتوظيفها في عملية التشكيل المعماري والعطاء المتميز في هذا المجال هو تحويل المادة من عامل مقيد بحدود معينة للاستخدام الى عامل دافع مطور مساعد مبدع في مجال التشكيل. ان الوصول الى هذه المرحلة يقودنا الى درجات في مفردات الطابع عبر الانشاء. ان من يستخدم المفردات الاولى في الانشاء وعبر الخواص المباشرة للمادة هو من يستخدم مفردات اللغة لحاجة الحديث أو الكتابة العادية اليومية، أما من يستخدم تلك المفردات الانشائية بحذق ومهارة يوظفها ويبدع في تطويعها هو كمثل من يوظف مفردات اللغة ليقول من خلالها شعرا، فالمفردات لم تتغير ولكن سبيل التعامل معها وفهمها هو الذي تغير.

فالطين مادة ضعيفة التماسك، ضعيفة المقاومة، عندما كانت ترابا رغم صفاتها المتميزة الاخرى في العزل ومراقبة خواص هذه التربة في الامتصاص وتحولها الى مادة لدنة يمكن تشكيلها اشكالا تثبت بعد الجفاف، حول التربة الى مادة جديدة، من خلال فهم اعمق ومراقبة واعية لخواص هذه المادة ذات صفة جديدة اضافة الى العازلية هي المقاومة، وتقوية هذه التربة بمادة اضافية كالقش يحولها الى مادة اكثر مقاومة، وتجفيفها بأشعة الشمس يعطيها صفات تتحسن بتشبعها بدرجات حرارة مختلفة ينقلها من مادة عاجزة في المجال الانشائي الى مادة كبيرة المقاومة رائعة الاستعمال.

ان فهم صفات هذه المادة الجديدة كمادة مقاومة للضغط دعى الى التفكير باستخدامها وتوظيفها في المجالات الانشائية تستغلها في هذا الاطار، ومن خلال هذه الامكانية تنقلها من جديد من مادة عاجزة الى مادة رائعة الاستعمال مبدعة اشكالها جميلة في التجسيد دافعة في احتواء الفراغ وتشكيله، وهنا يكمن الابداع ومن هنا يتشكل الطابع على المستوى الانشائي.

والحجر مادة نبيلة اخرى، انها ضعيفة في مجال، قوية من مجالات، اذا أحسن فهم خواصها بدأت قيدا وانتهت امكانية عندما كانت معلوماتنا عن امكاناتها محدودة وانتهت امكانية عندما وظفت من خلال جمل انشائية جديدة فهمت ابعادا جديدة لصفات هذه المادة.

والخرسانة المسلحة مادة، مكوناتها في الطبيعة تبدو ضعيفة، ولكنها قوية جدا عندما أحسن تكوينها في خلطة تجمع صفات مميزة لكل من هذه المكونات في تواجده مع الآخر فلا الرمل والحصى ولا الماء ولا الاسمنت بقادرة على العمل بمفردها ولكنها قوية التماسك مع بعضها اذا ما خلطت في شروط

لتعطي مادة تتكامل مع الحديد ليكون الناتج مادة رائعة تستجيب لتحديات بدت المواد الاخرى عاجزة عن الرد عليها. وقد بدت في بداياتها محدودة الامكانات، وبتطوير هذه الامكانات والفهم الاعمق لدقائق صفات المادة من خلال فهم اعمق، لتصرف مفرداتها، بدا لنا الآن أن الخرسانة المسلحة مادة غير محدودة الامكانيات في اطار التحديات المطلوبة منها.

وعلى ذلك فإن حُسن التعامل مع المادة والعطاء المتميز من خلالها ادى الى الاعجاب بها، وبالتالي الى الاعجاب بمفرداتها في مقولة الطابع، ومن هنا بدأ سوء الفهم واختلاط المواضيع ببعضها وتحول الأمر الى تكريس لهذا الاعجاب من خلال تحنيط تلك الاشكال التي نجحت من خلالها تلك المواد في الرد على التحديات المطروحة عليها ومن ثم تقليدها ونقلها واستعارتها لمواد أخرى وبشروط مخالفة وبتوظيف خاطىء اساء الى المقلد والمقلد في آن واحد.

ان اثبات المادة بجدارتها لا يعني أن اشكالها يجب أن تستعار لمواد اخرى، تناقضها في الصفات ويدعى بالتالي ان هذا حفاظ على الطابع، فالطابع ليس قالبا يلبس ولا شكلا ينتقى، انه نتيجة ونتيجة منطقية وحتمية لاستعمال منطقي وواع للمادة في مكانها المناسب وعبر صفاتها وفي حدود ما هو مطلوب منها.

فلا فائدة من توظيف الحجر خارج امكاناته ليستعير اشكال الخرسانة ولا فائدة في تحمل الخرسانة اعباء لا تحتاجها للرد على ما هو مطلوب منها لتحاكي جمال اشكال الحجر ولا الحجر مكان الآجر، والآجر مكان الطين ولا الطين مكان الحجر.

فلكل صفاته ولكل مقيداته نتغلب عليها بحسن فهمنا لهذه الصفات وتطويرها وليس باسباغ صفات لا تحتملها ولا هي منها ولا هي اليها.

من الممكن تطوير الجملة الانشائية في المادة الواحدة من خلال فهم افضل، وتوظيف افضل للمادة، وتطوير خواص المادة الواحدة تضاهي صفات مادة اخرى أفضل وبالتالي تحاكيها في قدرتها على التشكيل واثارة الاعجاب ولكن ليس من الممكن إكساب المادة صفات ليست لها وليست فيها وبالتالي ستستغل حتما في ادعاء تمتعها بقدرة المادة الاخرى.

الطابع والعمارة

فيما يلي محاولة لإلقاء الضوء على رؤيتنا لمفهوم الطابع في العمارة ونظرا لما للموضوع من أهمية خاصة ترتبها بالجدول القائم حول الشخصية المعمارية في مرحلة زمنية لشعب من الشعوب وعلى الاخص أهمية هذا الموضوع بالنسبة للشخصية المعمارية في منطقتنا العربية كشكل والقطر العربي السوري خاصة وفي الفترة الزمنية الحاضرة، فلا بد لنا من أن نصل قبل كل شيء الى ايضاح تصوراتنا التي ترتبط بموقعنا من مفهومين اساسيين هما باعتقادنا عماد العمارة وأساس شخصيتها في كل عصر من العصور هذان المفهوما هما:

- التراث؛
- الطابع.

ولقد سبق وحددنا في اكثر من مناسبة موقفنا من مقولة التراث الذي نرى فيه وحدة الماضي والحاضر والمستقبل، الامر الذي لا يمكن تجزئته كما لا يمكن استعارة حصيلة اجزائه وتوظيفها في صالح ما قبلها أو ما بعدها.

فالتراث الذي نرى فيه تراكم خبرة الانسان في حواره مع الطبيعة يضم كل خبرة الماضي وممارسة الحاضر والتمهيد للمستقبل في اطار من الاستمرار والمعاصرة والاصالة، بالاستمرار نحقق التواصل وبالمعاصرة نحقق كوننا ابناء عصرنا بكل صفاته ومعطياته وفي عطائنا المتميز في كل لحظة تكمن الاصالة وهذه المفاهيم الثلاثة (الاستمرار والمعاصرة والاصالة) هي اساس مقولة التطور التي هي المحرك في العملية التراثية، ومن هنا فالتراثية عملية وليست حالة ومن هنا ايضا فلا نستطيع تثبيت حالة في هذه المسيرة لتصبح مثلا لكل لحظة تليها ومن هنا لا يجوز لنا تحنيط اشكال الماضي ونقلها بدعوى محافظتنا على التراث فليس التراث ماضيا ينقل ولا هو حاضر مستقل ولا هو مستقبل منفصل فخبرة الماضي وليدة ظروفها ويجب أن تكون تمهيدا لخبرة الحاضر بحيث تكون هذه الأخيرة استمرارا منطقيا لهذا الحاضر.

والواقع أن فهمنا لهذه الآلية هو الذي يقودنا الى الطريق الصحيح لتحقيق شخصيتنا المعمارية المتميزة في كل عصر من العصور.

فمن الماضي المتميز نتخذ دروسا لمواجهة مشاكل الحاضر بوسائل الحاضر وبمنطق الماضي الفذ في مواجهته لمشاكله بنجاح وارجو ألاّ يساء الفهم هنا بحيث يظن أن في ذلك عودة الى الماضي من جديد وانما القصد هنا أن نتسلح بمنطق سليم في مواجهة مشاكل عصرنا للوصول الى حلول متميزة كما كان منطق الماضي سليما في وصوله الى حلول متميزة اثارت اعجابنا في الحاضر.

فقد تعامل الماضي بنجاح مع مشاكله وبأساليب ومعطيات وتقنيات ومتطلبات زمنه وعلينا الان ايضا ان نتعامل بنجاح مع حاضرنا ومعطياته واساليبه وتقنياته ومتطلبات انشائه.

هذه النظرة الشاملة المتكاملة هي التي تقودنا الى الحديث عن الطابع.

فما كان عصر من عصور الماضي انقطاعا في سلسلة التطور ولا عودة الى الوراء، إنه استمرار منطقي لكل لحظة ماضية في وصولها الى حاضرها إنه استمرار حقيقي، إنه تكامل.

فالطابع الحقيقي هو العطاء المتميز على المستويات التي تمثل مقولة العمارة في مجملها فمكونات الموضوع المعماري تكمن في البحث عن الشروط الملائمة لتحقيق فراغ يستوعب نشاط الانسان في كل فترة زمنية انسجاما مع بيئة معينة وطريقة عيش خاصة ومن خلال ما هو متوفر من مواد وباستخدام كل ما وصل اليه عصر الانسان من تقنية ويصبح الطابع في هذه الحال:

- عطاء متميز في الرد على تحديات بيئية ومناخية معينة؛
- وعطاء متميز في الاستجابة لممارسة حياتية معينة؛
- وعطاء متميز في التعامل مع المادة وامكاناتها من خلال توظيف كل تقنيات العصر المعني.

ان هذا العطاء المتميز على هذه المستويات هو الذي يعطي الموضوع المعماري بعناصره المختلفة شخصيته المتميزة والتي تقودنا الى تعريف الطابع المعماري باختصار بأنه مجموعة الصفات التي تميز موضوعا معماريا والطابع المميز هو مجموعة الصفات (الخاصة) التي تميز موضوعا معماريا معينا وهذا التميز لا يتم الا من خلال التعامل بكفاءة في الرد على مختلف التحديات التي تفرضها الامور التي سبق ذكرها لتثير اعجابنا بهذه الحلول ولتجعلنا نقر بتميزها لأنها تخاطب فينا أقصى المتطلبات في كل متطلب تفرضه عناصر الموضوع المعماري وضمن معطيات عصر ذلك الموضوع وبذلك ولكي نستطيع أن نوضح ما نقصد تماما من ذلك رأينا أن نقسم موضوع البحث الى ثلاثة أقسام:

الاول : الطابع والمناخ
الثاني: الطابع والمادة
الثالث: الطابع والمجتمع

دون ان ننسى أن المحرك الاساسي في العملية المعمارية هو الاحتياج الذي يجرح الوظيفة المعمارية.

وسنحاول في النهاية أن نسقط ذلك على مثال تجريبي في بيت حديث قمنا بتنفيذه وأطلقنا على موضوعه اسم (بيت معاصر ومادة تقليدية)، نعتقد أنه يجيب بصورة محسوسة عن رؤيتنا لما يجب أن يكون عليه الطابع أو بكلام أصح لمفهومنا عن الطابع كما نراه مجسدا في مبنى محدد.